

الثورة العربية والفكر العربي

بقلم أحمد عبا صالح

الاستعمار الطارئ، ومنهكين فسي التخلف المزري، والى جانب ذلك كنا مفنوين بالعالم الحديث. وكنا نعيش تحت أسماء كبيرة وهمية نسطعها اصطناعا تعويضا عما نحسه من نقص بازاء العالم الحديث. كنا قد نسينا المفامرة المتحدية، لم نعرف المخاطرة، ولا السباقات الخطرة، ولا جنون تحدي الموت، ذلك الجنون الخلاق الذي لا تعيش بغيره أمة من الأمم. كنا كالمجائر نتشبت بحياة مريضة لا طعم لها، ونخاف الموت في كل خطوة، ونطلب السلامة في الفكر والعمل. ولكن انصافا للحق، كان هذا قدرا تاريخيا، كان تراكمات عصور من التحلل والتمزق، لا يقضى عليها بضرية واحدة، ولا بحويبة جيل واحد.

فهما تكن طبيعة الامبراطورية العثمانية، فانها كانت آخر تجمع شرقي، حين كان العالم يتعامل على أساس انه شرق وغرب، في مواجهة القوى الغربية، وهو تجمع يحمل كل ما ورثه من الامبراطورية العباسية القديمة، تلك الامبراطورية التي انهارت داخليا بعد قرن واحد من قيامها، ثم صهقت كل شيء، وأورثت شعوبها رذائل ليست أقل مما أورثته الامبراطورية الرومانية لشعوبها. وفي الامبراطورية العثمانية، تبلورت هذه الرذائل واكتسبت اضافات جديدة. وبدافع من حب البقاء حاول تجمع بديل أن يقوم في مصر بقيادة محمد علي، ولكن الوقت كان قد فات، وضرب التجمع في أوانه من هذه الاطراف المعنية.

وحين قامت الثورة العربية في العقد الثاني من هذا القرن كانت تنشده الاستقلال عن تركيا لتقع في برائن الاستعمار الاوربي الجديد، ولم يكن التفكير العربي يملك القدرة على الرؤية الصحيحة، كما لم يكن يملك الامكانيات للاستفادة من هذه الرؤية لو أتيحت له.

ومنذ سقوط محمد علي، وفشل الثورة العربية، لم يقم تجمع جديد الا في ستينات هذا القرن. أعني انه لم تقم «محاولة» للتجمع الا في ستينات هذا القرن، عقب ثورة يوليو ١٩٥٢ في مصر والثورات الاخرى المتلاحقة في الوطن العربي، وقامت ثورة التحرير الجزائرية بدورها الحاسم والدموي والذي كنا نتفكر فيه.

واستفاد التجمع الجديد من ظروف مواتية، أبرزها تغير خريطة العالم، وثانيها روح التوثب العربية، أو ما يمكن أن نسميه بريح الثورة العربية الجديدة، المصاحبة لعملية الصحو عقب حركات الاستقلال والثورات التي اتخذت طابعا تقديميا.

وكان من الممكن أن نحدئ حين يجد التجمع قبولا، أو لا يجسد معارضة حقيقية. فهو تجمع ظهر قبل أوانه، ولم يستفد من دروس الفشل السابق. وكان من الضروري أن يتم في «لهوجة»، ودون فكر علمي مخطط وتنظيم حقيقي للجماهير. وبالتالي لم تقم لدينا شبهة في انه الطعم الملقى لنا، وقد التهمناه بكل بساطة، وظننا ان في استطاعتنا اذابة كل التناقضات في هذا التجمع. وقبل أن نستطيع الوقوف على أقدامنا، كنا نتحدث عن الدولة العظمى الموحدة.

وتاه الفكر العربي في الحسد من الوحدة قبل الاشتراكية أو الاشتراكية قبل الوحدة. وألقيت أسئلة كثيرة من هذا الطراز. وألقيت قضية فلسطين في الظل حتى تتم الوحدة وتقوم الدولة العظمى بتصفية اسرائيل.

وحين نفتش في الفكر الذي طرح نفسه منذ عدوان ١٩٥٦ حتى عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ لا نجد الا ان قضية فلسطين قضية مؤجلة.

يخيل لي انه من الافضل - قبل كل شيء - حين ننظر الى الحركة الفدائية الفلسطينية، أن ننظر اليها في ذاتها، أعني ألا نحاول اكتشاف دوافعها من الخارج، سواء كانت فكرية أو اجتماعية، أو سياسية بأي معنى. وهذه الفكرة تخطر على الذهن اذ يحاول الانسان أن يتأمل تلك الانفجارات المفاجئة، التي ظلت منتظرة فترة طويلة، ومتوقفة في كل لحظة، ليس فقط منذ قيام اسرائيل، أي منذ عشرين سنة، بل قبل ذلك بكثير، منذ الهجرة اليهودية، ومنذ الاستيطان المنظم، ومنذ ظهور الكتابات الصهيونية الاولى التي لم يكن لها الا معنى واحد، هو القاء العرب الذين يقيمون في فلسطين في سلة المهملات، بل القاء العرب جميعا في هذه السلة. فلم يكن للعرب خلال الكلمات الكثيرة التي أقيمت في المؤتمرات الصهيونية أي وجود، لم يكونوا طرفا في النزاع. ولا شك ان هناك صورا من ردود الفعل العربية داخل فلسطين وخارجها، ولكن الموقف حسم بواسطة الاطراف العليا، وكانت مشكلة حسمه كامنة في القدرة على التوفيق بين الآراء المتناقضة والمصالح المتعارضة في هذه القوى. أما العرب فلم يدر معهم نقاش على الاطلاق، وكانت الكلمة النهائية معهم بضع طلاقات.

وقد أسفر الاستيطان التسلسل عن استيطان علني، عن دولة. وتجمعت الجيوش العربية وتفرقت، وكانها نجدة قبيلة لا صراع كيانات. وقامت دولة اسرائيل.

ولم تصور الاطراف المعنية أن تكون لتلك البقعة «التخلفة» من العالم، والتي كانت مزقا من الامبراطورية العثمانية المريضة ورتتها أوروبا الغربية، مقاومة تذكر، وقد خبر الاستعماران البريطاني والفرنسي وسائل كبح جماح هذه المنطقة. وكان العالم العربي محملا بكل آثار القرون السالفة التي انتهت الى الخلافة العثمانية بكل ما فيها من خير أو شر. ولم تكن أوروبا غازية ومستعمرة وتبحث عن القنائم فحسب، بل كانت تمقت هذا «الشرق» مقنا تاريخيا متعصبا. وكانت تفترسه افتراسا.

ولم تنشأ الفكرة الصهيونية الا في ظل هذه الظروف، في ظل التصفية للدولة الشرقية التي جثمت على أطراف أوروبا وورثت بيزنطة القديمة بشباب شرقية فاقمة.

هنا ظهرت كل الاحلام، وأصبح في مقدور اليهودي المشرد هو الآخر أن يحلم، وكان العالم العربي بالنسبة لاوروبا وراء الاسوار، منفى لمن تلفظه الحضارة الجديدة، ولا بأس أن يقبل «المشرد» أن ينفي نفسه هناك. لا بأس أن يكون محطة وصول، وأن يكون خادما الخان كلما حطت الرحال.

وصحت توقعات «الاطراف المعنية»: لم تكن هناك مقاومة حاسمة، وجاءت كل الحسابات سليمة.

وكان الفكر العربي في شبهه غيبوبة، كل دولة تبحث لها عن هوية، وظهرت النزعة الفرعونية في مصر على اثر الاكتشافات الاثرية، كما ظهرت النزعات الفينيقية والاشورية في غيرها من البلدان العربية. ومن غرائب الصدفة ان هذه الاكتشافات لم يقم بها العرب أنفسهم، بل رجال من أبناء الغزاة، من «الاطراف المعنية»، وبصرف النظر عن دلالاتها العلمية فقد وجدنا فيها بطاقة هوية، وكاننا كنا نبحت عن نسب ضائع.

وحيثما قامت اسرائيل كنا منهكين في حركات التحرير من

وهكذا أجل الفلسطينيون دورهم في انتظار قيام الدولة العظمى الموحدة . وكان هناك كلام كثير عن الاشتراكية والمجتمع الصناعي ، وكان هذا في الامكان وعلى مرمى البصر نقف اسرائيل . لقد ظننا في لحظة من لحظات الخدر التاريخي ان معركة التحرر الوطني قد حسمت ، وان البلاد العربية قد نالت استقلالها ، ولم نستطع ان نرى وجه الشبه بين اسرائيل كقاعدة عسكرية ، وبين السويس مثلا كقاعدة عسكرية قبل جلاء الانكليز .

ان معركة التحرر الوطني لم تنته ، ولقد غير الاستعمار موقفه فقط . وعلينا الآن ان نسال ما هو دور قاعدة السويس القديمة الا الوثوب عند اللزوم لرد الامور الى ما كانت عليه ، وهو الدور نفسه الذي تلعبه اسرائيل .

وتحت الشعارات الطائفة والدراسات الكثيرة التي ملأت عشرات الكتب الضخمة لم نلتفت الى الحقيقة البسيطة ، وهي ان ثورات التحرير لا تؤجل نفسها . وان حروب التحرير ليست جيوشا مجيشة ، ولا علما عسكريا كلاسيكيا ، لان القسوة التي تواجهها حرب التحرير قوة اكثر تنظيما بحكم سيطرتها ، وبحكم الاحتياطي الضخم الذي يكمن خلفها الى ما وراء الباسيفيكي . ان حرب التحرير حرب جماهيرية من الدرجة الاولى ، وهو ما لم ندركه ولم نحاول ادراكه ، بل استبدلنا به احلاما من طراز آخر .

ودون ان نلاحظ ، وكما نقسول عن انفسنا ، من منطق تضخيم الذات ، بدونا امام العالم بصورة مقلوبة : مجموعة من الدول الكبيرة تحاول ان تفتس دويلة صغيرة . ونحن السذبن اعطينا هذه الصورة المقلوبة لانفسنا . ويبدو اننا اول من صدق نفسه ، ولم نستطع الفكر العربي ان يسير اغوار الموقف ، وما زال بيننا من يجادل في ان اسرائيل تكنة عسكرية للامبريالية العالمية ، ويريد التعامل معها بمعزل عن القوى الكبرى التي وراءها .

ان قضيتنا كما يفهمها رجل الشارع البسيط هي اجلاء القوى الدخيلة ، اجلاء الاحتلال العسكري ، تحرير الارض العربية من الاستعمار الصهيوني او العالمي او ايا كان اسمه . ولكن هذا - على بساطته - لم يكن مفهوما . وعلى العكس من ذلك كنا نظن اننا نستطيع بالذكاء الخارق ان نخدع كل الاطراف ، وان نصدق ان الامبريالية التي تخوض اعنف معركة في تاريخها ستتخلى عن الشرق الاوسط تحت ضغوط التغييرات الداخلية والانظمة الجديدة ، ولم تلتفت هذه الانظمة التفاتة جدية الى مغزى تحركها في اطار من الحساسية والرغبة من اثارة غضب القوى الامبريالية في اخص شؤوننا ، حتى عند تعيين وزير او موظف كبير في موقع حساس . لقد نفينا بانفسنا من العمل الوطني - لهذا السبب - كل العناصر التي قد تحدث قلقا لدى القوى الكبرى التي تعتبر الشرق الاوسط ملكا حلالا لها . وعندما كنا ننشر بعض الكتب الثورية كنا فسي المنايل - ومن اجل هذه الحساسية - ننشر الكتب التي تريد ترويجها هذه القوى ، وكان يتم تحت اعيننا تجنيد بعض العناصر فكريا - على الاقل - لخدمة المصامين الاجتماعية التي تزاح لها هذه القوى ، وكنا نفرس ذلك بنزعنا الى الحرية والانفتاح على كل التيارات . وعند لحظة الصدام الحقيقية كنا عراة تماما امام اعدائنا . وعقب الهزيمة بدأنا نكتشف قليلا اننا شئنا او آيينا منطقة نفوذ ، وعلى الانظمة الجديدة لكي تعاش ان تفهم هذه الحقيقة وان تحسب حسابها .

ولعلنا - حين بدأنا ننظر الى خريطةنا - اكتشفنا اننا كمصادر ثروة وكخطوة مواصلات حيوية وكموقع استراتيجي فضلا عن كوننا سوفات تبادلية ، لم نزل في اطار القوى الامبريالية ، وان جهادنا الحذر ونجاحنا المحدود مرفوضة أيضا على تواضعها .

وخلال عشرين سنة من الوجود الاسرائيلي لم نكسب شيئا واحدا من ارض فلسطين ، وبمراجعة مساحة فلسطين المفتصة منذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن نجد الامتدادات المتوالية ، قطعة وراء قطعة ، وها هي ذي اسرائيل تمتد الى خارج فلسطين ، وتضع اصابعها على اراض

شاسعة خارج المساحة التي كنا ننتزع عليها الى سنة ١٩٤٨ ! وعلى الرغم من كل محاولتنا لتهدة خواطر الامبريالية العالمية ، فاننا لم نكسب تأييدا واحدا حتى في آتفه الامور . ولم تراجع هذه الحقيقة ، لم نتبين حتى الآن ان الانظمة العربية مهما يكن مدى ولائها او مهادنتها للامبريالية فانها غير مأمونة ، لاحتمالات وقوعها تحت تأثير جماهيرها ، وتحت الحاحات الازمات العنيفة التي يعيشها مجتمع متخلف كمجتمعنا .

وتستطيع اسرائيل ان تباهي بديمقراطية يرضى عنها ليبراليو الغرب ، وان تكون احزابا ، وان تسمح بحزب شيوعي ، وان تشكل اتحادا للعمال ، وان يتشدد بعض ابناءها بان لهم حرية معارضة السلطة الصهيونية في الحكم الاسرائيلي ، وان ترتفع بداخلها اصوات تنصح بالبطولة الكاذبة تدعي العطف على العرب ، بل وتأييد العرب في بعض الاحيان . وقد نجد اصواتا تهاجم الامبريالية الاميركية لا تقل فسي جهيرها عن تلك الاصوات التي نسئعها في أي بلد معاد للاخطبوط الاميريكي . ولكن كل هذا مقبول ، ولا يبعث على شيء من القلق لانه بعد كل ذلك ، وفوق كل ذلك ، يعتمد الوجود الاسرائيلي على الدعم الامبريالي وسط المحيط العربي . ان تلك الجزيرة الضئيلة لا مكان لها الا في حضن الامبريالية العالمية ، وهو فهم مشترك ومتبادل بين اسرائيل والحركة الصهيونية بشكل عام وبين الامبريالية .

اما المجتمع العربي الذي لا يسمح فيه بصيحة تحرر من أي نوع ، فهو مصدر قلق للامبريالية . ان مجتمعات شيوخ البترول - على حد زعم كاتب صهيوني يدعي التقدمية - أكثر اقلقا للامبريالية الاميركية من الحزب الشيوعي الاسرائيلي . ومن المؤسف ان نضطر أحيانا لتثنيه بعض كبار المفكرين الغربيين الى حقائق هامة ، وهي ان كبح جماح التقدمية في العالم العربي تشترك فيه قوى الاجهزة الاميركية ، قبل ان يشترك فيه شيوخ البترول هؤلاء .

ان الجماهير الاسرائيلية مرتبطة في النهاية بالكيان الاسرائيلي ، بالوجود الاسرائيلي ، وهذا الوجود المحفوف بالمخاطر - بلا حماية من الامبريالية - يجر كل أشكال النشاطات التقدمية في اسرائيل من حقيقتها ، يجعلها مجرد لافتات تصلح للدعاية ، للتباهي الاسرائيلي عند المقارنة بين المجتمعات العربية « الرجعية » وبين المجتمع الاسرائيلي « التقدمي » .

واني اذكر هنا بالمرارة تجربة غاية في الغرابة والتناقض . فقد قرأت مغالا منذ عدة شهور في لندن ، لكاتب اسرائيلي عضو في الكنيسة كما قال هو عن نفسه ، وشارك في حرب يونيو ، وهاجم بعض التصرفات الاسرائيلية في تقرير نشره على العالم - كما يقول - خصص مقاله هذا للوم العالم الاشتراكي والاحزاب الشيوعية - لانه كشيوعي - يجد نفسه منفيا عن حضور المؤتمرات الشيوعية ، عن الاستماع الى آرائه ، عن الجلوس معه في مقهى واحد لتناول قرح من البيرة ، انه لا يستطيع ان يتنس بالاحترام اللائق بمفكر عصري ثوري ، ولا ان يتمشى باطمئنان في سان جرمان او في سلس او غيرها من الاحياء الشهيرة ، لانه - مع كونه شيوعيا - منبؤ لانه اسرائيلي . ثم يتباهى بان اسرائيل مع ذلك ، دولة ديمقراطية ، وانها بجميع المقاييس الحديثة ، وبالمقارنة الى المجتمعات العربية ، دولة تقدمية .

وتأكدت ان أحدا لم يفتنع من قراء هذا المقال الذي أفردت له مجلة « نيو ستسمان » التي عرفت للعالم بانها من الجلات ذات النزعة التقدمية صفحتين كاملتين ، وأبرزت عنوانه في أول الصفحة الأولى . ولكن كيف يرد المواطن العربي ؟ كيف يستطيع ان يعري هذا الزيف ، وهو لن يستطيع ان يدافع عن بعض الانظمة العربية التي قدمت في المقال على سبيل المقارنة ؟

انه على العكس من ذلك ، يجد المواطن العربي التقدمي نفسه غريبا كل الغربة ، غير مفهوم على الاطلاق ، حتى بالنسبة لبعض العناصر التقدمية . وقد تحولت في النهاية حرب يونيو الى دفاع عن الوجود - التتمة على الصفحة ١١٤ -

الثورة العربية والفكر العربي

– تمة المنشور على الصفحة ٣ –

الاسرائيلي ضد التوحش العربي الذي يراد به القاء اسرائيل في البحر .

ذلك ان حرب التحرير لم تكن واردة . ولا أدري ماذا تعني حرب فينتام التحررية أقل من القاء القوى العسكرية الاميركية في البحر ، ولا نضال الشعوب ضد الحكم العنصري في روديسيا أو جنوب افريقيا . ماذا تعني مظاهرات الطلبة في أوكيناوا في اليابان الا طرد القواعد الاميركية ؟

ان حرب التحرير الفلسطينية لا تعني الا ما تعنيه أية حرب تحريرية أخرى .

ولماذا قُبلت حرب التحرير الجزائرية وقد أُلقت بأكثر من تسداد سكان اسرائيل خارج الجزائر من المستوطنين الفرنسيين ؟

حقائق عُرفت في المناهات ، وضاعت بين اقدام الدعاية الاسرائيلية التي ارجو ان انبه الى طابعها العام . فالوجه الذي تظهر به الدعاية الصهيونية وجه اليسار التقدمي ، الوجه الذي استعار من اليسار الاوروبي الحقيقي نعمة الحريسة ، والمضمون الانساني ، وعذابات التضحية في سبيل الوجود الحر . بينما انطلقت ردودنا صفراء وباهتة ، لان الذي يتصدى لها عناصر عفى عليها الزمن ، لا تستطيع ان تدرك حتى مغزى الوجود الاسرائيلي . اما معنى الحرية عندها فمعنى باهت ومتخلف يتفق تماما مع ما تصمنا به اسرائيل . وبكل الساطة لان المفكر اليساري العربي ، المفكر الذي أنهك كثيرا حتى العجز في وطننا ، منفي ، لانه خطر . ولم نسأل خطر ضد من ؟ خطر ضد النظام العام لتوزيع الثروة ؟ ولكن كيف تكون هذه القضية مطروحة والوطن العربي مكبل بالاستعباد ؟ استعباد حقيقي ، ينطوي على اعماق معاني الادلل . ان الخطر الوحيد الذي يمثله هذا الفكر هو ضد الامبريالية ، وضد الاحتلال الاخطبوطي الاسرائيلي . هذا الاحتلال العنصري ، الذي يمقت بكل الضراوة التخيلية والذي فكر بكل المقت الذي لم تعرفه البشرية الا في الدرامات العنيفة ، ان يقتل ويعذب ويفنى وكان على اعتاب ان يجرب الحرب البيولوجية ، حرب الاوبئة وحرب الافناء البشري . لكن هذه الفصائح لم تثر . ترددت قليلا ثم طمست .

ولكن – لاعتبارات كثيرة – أهمها التوجس الاميركي والامبريالي بوجه عام ، من أي فكر تقدمي يطرحه العرب ، ينفى ويشجب ويغرب حتى الهلاك المفكر العرب التقدمي ، فضلا عن ابعاده عن شرح حقيقة الوضع في بلاده . وهكذا نحارب في جبهة الدعاية بأسلحة فاسدة مع مصادرة الاسلحة الحقيقية عن عمد .

وبدلا من ان تأخذ الحركة الصهيونية ابعادها الحقيقية كحركة عنصرية مماثلة بطبيعتها كحركة عنصرية للامبريالية العالمية ، ومماثلة لها بحكم الوجود والحماية للمصالح الامبريالية ، فضلا عن تحديدها لايسط مبادئ الشرعية واكثرها بدهاء اذ تقوم على اشبح انواع الاحتلال واكثرها قدما وكلاسيكية ، واشدها تناقضا مع الفكر الليبرالي فضلا عن الفكر اليساري التقدمي . اخذت ابعادا مغايرة تماما ، اصبحت الواحة المتقدمة والتطورة وسط صحراء من التخلف الحضاري والاجتماعي باوسع معانيه ، اصبحت المنارة الوحيدة التي تضيء وسط الظلمة القاحلة . ولم تقع الصهيونية في اسر الخط الواحد ، لم تتجمد عند صورتها الاولى كمنطق لقيادات رجعية تتعامل مع بريطانيا كعميلة وتتفاهم مع تركيا بالرشوة والتهديد ، بل اصبحت حركة فكرية ، يستطيع المثقف الغربي ان يجد فيها كل التيارات الحديثة من أقصى اليمين حيث مواقع الفاشية ، الى أقصى اليسار ، كلهم يزفون سيمفونية واحدة متعددة الانغام ولكن على آلات مختلفة .

ونتيجة لعشرات الكتابات الصهيونية التي اتخذت جميع الاشكال ، لم يعد ممكنا ان يتكلم المثقف العربي عن مأساة اللاجئين ، لنستعمل اساليب التسول التقليدية فنعري عاهاتنا ونبرزها امام « الاثرياء » لنستجدي شيئا من الشفقة . او عن اسرائيل كاحتلال استيطاني سافر ، ذلك ان كتاب اسرائيل يعرفون ان اميركا الحديثة قامت بالطريقة نفسها ، وان العالم عرف في تاريخه اشبح انواع عمليات التهجير الجماعية على عهد اسبانيا عقب هزيمة العرب . ان الضمير الاوروبي غني بالآثام وقادر على هضمها ، ولكننا كنا نظن دائما اننا نخاطب ملائكة .

وحين نتحدث – عن طيبة – عن مغزى الوطن الذي يقوم على العنصرية وعلى وحدة الدين ، نفاجا بان اسرائيل ليست السابقة الوحيدة ، وقد يرد عليك مثقف تقدمي اوروبي بان العصر الحديث عرف هذا النوع من الاوطان ، وقد يتسم ابتسامة مفحمة ويقول لك ما رأيك في باكستان !

وعلى الرغم مما في كل هذا من مغالطات ، فان احدا ليس مستعدا ان يستمع لك ، بعد الطنطنة الكثيرة التي اغرقت نفسك فيها في خط واحد ، وفكرة واحدة وهي ادانة العمل غير الانساني الذي قامت به اسرائيل ضد العرب حين اجلتهم عن اراضيهم وشردهم في الخيام .

ان اوربا عرفت وقُبلت ومارست ما هو اشبح من هذا . والذي يهتز له قلب العالم طربا هو الانتصار ، هو القوة . وما زال مفتاح الحضارة الحديثة وطوطمها المعبود هو القوة ، ويبدو انه سيظل كذلك الى مدى طويل .

ان الطبيعة نفسها تختزل الضعفاء وتنتخب الاقوى ، ان شريسة التقدم هي في المنافسة والصدام والانتصار . ليس هذا مفهوما جوهريا للحياة الحديثة دعم بنظريات في البيولوجيا وفي الفلسفة الاجتماعية !

علينا ان نقبل هذا بكل بساطة او نخترل كاي عيدان هشة زائدة عن الحاجة ، وسنكون مضحكين بالنسبة للعالم لو توقفنا ان يدرف احد علينا دمعة .

ولكننا لم نسأل انفسنا عن القوة .. ما هي القوة .. ؟ الكثيرون منا يتحدثون بتسليم المجاز من العلم والتكنولوجيا وعن الدولة العصرية . ولنتنظر دهورا حتى نحقق هذا كله . الا ان الدولة العصرية بكل مظاهرها ليست الا مظهر القوة ، اما القوة ذاتها فلم تنام لها . القوة التي جعلت حفنة من العرب البدائيين – الى حد ما – يفتحون العالم في صدر الاسلام ، والتي جعلت الجيوش الاوروبية في عصر الاستعمار الاول تقتحم دولا يعيش فيها مئات الملايين . ليست هي العقيدة وحدها . فنحن نفعل في ذلك – بالنسبة للعقيدة الدينية – ما نفعله بالنسبة لكل شيء . الاستجداء .. استجداء الدولة الاقوى ، فاذا عجزنا استجدينا السماء . اننا نتملق السماء ايضا وهو امر مضحك لم ننتبهه ، الا وفجأة تزدحم الجوامع ، الا وفجأة تزخر اعمدة الصحف بالتدين ، الا وفجأة تمتلئ السماوات العربية بالدعاء والتراتيل . ولعلنا ايضا نعري خزينا وعارنا وعجزنا للسماء كسي ترضى . اما القوة فهي شيء اخر ، ان نتفاهم مع الموت ، ان نألفه وان ننظر اليه في بعده الحقيقي ، ان نخوضه ، وان نخترقه ، وان نستقل فيه بكل ضراوة حب الحياة ، وحب العظمة الانسانية . ان نرتفع فوق الحيوانية التي الفناها من عصور رخوة كئيبة ، حيث نمارس اللذائذ الصغيرة كما يجتر حمل صغير طعامه البائس في سعادة غامرة . ان نعرف ان الانسان يجب ان يعيش كإنسان . وهو ما فعلته كل الامم – غاصبة او صاحبة رسالة – في كل العصور .

ولكن « حالة » القوة ظاهرة تاريخية لا تستطيع ان تفرضها مثل هذه الكلمات . بل لعل هذه الكلمات هي التي فرضتها « حالة » القوة . فبعد ان تشرذ الفلسطينيين – البديل لليهودي النائه القديم – في انحاء الارض ، وبعد ان مارس بعض ما مارسه اليهودي القديم – على

صفر مدة التشريد - جرب المرارة نفسها . نجح في أوروبا وأميركا وفي بعض العواصم العربية ، وعاش حياة فردية مثل التي يعيشها المواطنون في أرجاء الأرض ، بل ربما وفق الى احسن منها كثيرا . ولكنه لم يجد في النهاية الا المرارة . اكتشف ان السبع والزهو المادي لم يكن الا سرايا . وما هوذا يقابل بالاستهانة ، وبإبتسامات خبيثة مؤدبة ، تنطوي على احتقاره كمنصر بشري . وعلى الرغم من انه لم يكن مسئولا عن كل ما حدث ، فان العالم كله يتلذذ بمضغ ضعفه. وبعد يونيو انضم الى المشرد الفلسطيني كل العرب ، أصبح العربي بشكل عام هو المشرد حتى في وطنه ، ويكاد العربي يجد في قلب كل انسان خارج الوطن العربي منفي ، حيا للمبوذنين ، جيتو غربيا ، يوجه اليه كلما اتصل بينهما حديث .

وفي الوقت نفسه كان العالم قد شبع من اللذائذ الصغيرة، فقدت الحياة معناها في ظل الضياع الفردي والاجتماعي الذي يعيشه المثقف في كل الاوطان . وظهر ادب الاحتجاج ولغت كلمات جديدة عن الاغتراب والعزلة ، تجاه الانظمة الفولية التي سدت جميع المنافذ ، ووقعت العالم داخل قالب محكم من علم السيطرة على الشعوب والافراد . وقامت الجزائر وكوبا وفييتنام بتحويل التمرد الفلسفي او الفكري الى تمرد حيوي ، وقام مفكرون جدد يبحثون عن الخلاص الروحي بالمذبح . ووقف شي جيفارا العظيم نبيا لكل المشردين ولكل الضائمين ، واعطى للموت الجليل معناه الحقيقي ، واعطى للحياة الذليلة معناها ايضا . واستطاع التفاهم مع الموت ان يقهر العلم والتكنولوجيا والدولة العصرية ، او على الاصح قد كشف عن ان هذه المسميات الساحرة ، لا يصنعها الا التفاهم مع الموت ، ومن قلب نضال الفلاحين السذج في الصين صنعت القنبلة الهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات في اقل من عشرين سنة ، واستطاع الفلاح الفيتنامي ان يصمد وان يقهر بالتفاهم مع الموت كل المسميات الحديثة ، ثم ان يصنعها وان يفهمها وتفهمه وان يطوعها لنفسه .

ومع ذلك فالفضية التي يصارع من اجلها الفيتناميون والكوبيون، على شرفها ، لا تتساوى مع الفضية التي يناضل من اجلها العرب. ان الامبريالية لا تريد روح الشعوب التي تحاربها ، بل اموالها وعروضها. اما الصهيونية فتريد وطنها خالسا مطهرا حتى من اثر اي عربي . ان اعنى القواعد العسكرية الاميركية او الانجليزية ، طائرة وموقنة ، اما الاستيطان الاسرائيلي فيريد ازاحة تاريخ باكملة ليني على الاساطير تاريخا اخر . والذي انكسر في حرب يونيو ليست الاوطان ، بل التراث الانساني والروحي للعربي ، الشخصية الانسانية للعربي . .

وللاسف لم يكن الفكر العربي مدركا لكل هذه الابعاد ، اما فكر التمرد الحديث والثورة الدموية ، فهو الذي غزانا وافاقنا من سبانتا. اصبحت كتابات الثوار « الرومانسيين » من امثال جيفارا هي العامل المنبه ، واصبح نماذج البطولات الثورية في الجزائر وكوبا وفييتنام مثلا حيا . كما اصبح تاريخ الابطال الاول للثورات الاشتراكية الحديثة منارة وعامل حض واثارة . واخيرا الكتابات الغربية الحديثة ذاتها التي عكست ما في العالم من فراغ وضياع لفقدانه للمغزى الروحي . وهكذا حمل الفلسطيني الذي كان يدرس او يعمل ويعلم احلام البورجوازية الصغيرة حقيقته وذهب الى فلسطين ، قاتلا او مقتولا . وكل تراثه من الفكر هو ما طرحه الانبياء المحذون .

ورجلا وراء رجل ، واصبحت للفلسطيني كرامة ، أصبح موجودا، اصبح حقيقة ، وبدت الدهشة على الجميع . وعقب الهزيمة ازدادت الصورة وضوحا ، وصار الوجود العربي كله ماثلا في الحركة الفدائية، في حرب التحرير العربية .

ومن ثم بدأ الكتاب العرب اقتناص الصورة الفاتية ، بدأ المفكرون العرب يكتشفون انهم ما زالوا قادرين على التفكير . ومع الخطوات الاولى لحركة التحرير الفلسطينية خطا الفكر العربي خطواته الاولى . وعمما قليل سيولد فكر عربي جديد هو وليد للعمل الفدائي . ومن جديد عدلت الصورة ، واصبح من قلب الواقع المحتدم يولد الفكر ، وكنا

لسنين طويلة نريد ان نفرض الكلمات والافكار على الواقع المفاير . كنا نتحدث عن الوحدة العربية ، وتكثر من النقاش ، ونقدم من الادلة كل ما نستطيع ابتداعه ، ولكن شيئا من هذا لم يتحقق ، لان العمل يسبق الفكر ، والفكر حين يسبق العمل يصبح سفسطة . لان نستطيع ان نتحدث عن وحدة العمل الفدائي ، عن وحدة حركة التحرير ، لان من يريد الوحدة في العمل الفدائي يستطيع ان يحمل سلاحه ويذهب بلا نقاش وبلا جدل طويل او قصير . وفي ساحة الفداء تستعيد الافكار صوابها ، وتقوم كل الاجسام على قواعدها الصحيحة . وعندما انغمسنا في العمل اختفت الاساطير ، ويتبقي ان تختفي، واختفت العنجهية والغرور والادعاء . وكلمنا اقتربنا من العمل اقتربنا من الواقع ، اقتربنا من الانسان الجوهر البسيط المتواضع ، واقتربنا من الفكر الصحيح . ولعله قد آن الآوان ان نفكر ونحن نتحرك، ونتحرك ونحن نفكر . وبالتالي علينا الا نترك لاية قوة ان تجتذبنا الى المناطق الوهمية .

فنحن مثلا لا نريد او يجب الا نريد لحركة التحرير الفلسطينية ان تبدو اكثر من حقيقتها ، ولا ان نسمح لاحد ان يجرنا الى هذا . وعلى العكس من ذلك من الافضل ان يبدو اقل من حقيقتنا ، فنحسن شعب - للكثير من الاسباب - نستمرى التفاخر ، ونميل الى المبالغة، وتكاد العاطفة الفاقعة القصيرة النفس تستولي علينا . وقد يأتي المناضل من اقاصي الارض ليحمل بندقيته ، مازوما ، مصمما ، مدركا ان حياته لا مغزى لها بغير انتصار حقيقي ، فتتلقفه اقلام الماجرين ، الذين يظنون انهم كلما بالفوا في التمجيد ادوا ما عليهم من واجب ، ورفعوا ما عليهم من عجز ، وشيئا فشيئا تنتشر على الورق قبل ان تنتشر في الحقيقة والواقع .

الواقع انه لم يبق لنا الا التبتل ، ان نصهر في الكفاح انصهار عابد متمسك ، شديد النسك ، فكم اثمنا في حق انفسنا، ولن نستطيع ان ننظر الا بمزيد من الدماء ، ومزيد من الامم الايجابية ، آلام قهر الذات قبل قهر العدو ، آلام الدربة على التواضع ، واعادة ضبط الكلام على حجم الوقائع . ثم كراهية الخلي الذي يتفنى بفصائلنا ، ونحن نعلم اننا بلا فصائل ما دمنا لم نخلص ارواحنا من ربكة الاستعباد .

لهذا اتوجس خيفة حين ارى صحف الامبريالية تحتفي بنا او ببعض رجالنا ، واتوجس خيفة حين نحتفي نحن ايضا بابطالنا ونفوقهم معنا في فقاعات الظهور والتفني بالامجاد ، ثم المناقشات العقيمة ! وبعد هذا علينا ان نحدد بالصرامة نفسها مواقفنا بالنسبة لكل القوى المحيطة ونتعلم كيف تكسبها او نخزرها . ومن حسن الحظ ان للامبريالية اعداء كثيرين ، ولثورة التحرير العالية ابعادا ، وللعمل السياسي علما وخبرات ، ولا اظن ان شيئا من هذا يفوت مناصل بيت النية على النصر .

واخشى ان اقول انه لم يبق لهذا الجيل الا ان تنتصر حركة التحرير الفدائية ، ان تتوهج ، وان تزداد جماهيرية ، وان تنجح كل القوى ، وكل الافكار الى حماية ودعم الحركة الفدائية . ولقد بدأت هذه المعاني تنضح في اذهاننا جميعا ، وعمما قريب يتحول العالم العربي الى ارضية متعددة الاعماق تحتضن حركة التحرير ، ومن خلال العمل وحده سنكتشف الطرق التي تؤدي الى تنظيم كل شيء ، وفي مقدمة ذلك تنظيم الفكر نفسه .

ومن هنا فان اثر حركة التحرير الفدائية على الفكر العربي سيكون بالغ الخطورة ، سيكون تأثيرا حضاريا يلمس الحياة الفكرية والروحية في كل جانب من جوانبها ، وسيوجد فن جديد ، وفكر جديد ، لانه يبني لأول مرة في تاريخنا الحديث على ارض صلبة من الاصطدام الخطر ، والدماء الزكية المراقبة .

ويبدو انه منذ اليوم ستستعيد الكلمات فاعليتها ، وتعود اليها خطورتها ان صادقة او كاذبة ، وسيصبح القتال في كل الميادين له خطره ومسئوليته ، حتى في ميدان الكلمة .

احمد عباس صالح